الخفافيش

للقصصي الإنجليزي هارى جرام

بقلم الأستاذ أحمد حلمى

انتخبت منذ حوالى خمس سنوات عضوا فى الجمعية الملكية للحيوان ، ومن ذلك الوقت وأنا أعتبر حديقة الحيوان مكانا يصلح لأن يسرى فيه الإنسان عن نفسه ، ويفيد منه ، إذا قضى به ساعة من صباح الأحد حينما يكون الجو صحوا ، فى صحبة الحيوان المفترض ترويح وترفيه لطيف ، أو كما يقول مترلنك بحق إن الإنسان كلما زاد اختلاطه بأبناء عشيرته زاد إقباله على سباع البحر

وفى صبيحة الأحد الماضى لم يكن ثمة شىء ما يشغلنى ، فأخذت أجول فى حديقة الحيوان ، أستمتع بالنسيم العليل ، وأناجى أصدقائى البكم ، إلى أن وقعت فجأة على صديق قديم — برسى بيفن — لم أصادفه منذ عهد الدراسة

« فقلت مرحبا : برسى ! ماذا تصنع هنا ؟ »

فأجاب « أنتظر بعض الأصدقاء ، تواعدنا على اللقاء بعد الصلاة فى الكنيسة » والتفت إلى بيت على طراز شبيه بالقوطى خصص لسكنى الحيوانات الثديية الصغيرة ، وقال لم لا ندخل ونلقى نظرة على الخفافيش قبل أن تستيقظ ؟

فأجبت (أما أنا فلا ! إنى أمقت الخفافيش ، ويقشعر بدنى لرؤيتها) ولست أدرى لم هذا ، ولكن الحق أن ذلك الحيوان الوديع يثير فى نفسى نفورا لا يعدله إلا نفور الفيلة — وأقل منه نفور النساء — من الفيران المسالمة التى لا تضر ولا تؤذى . وكراهية الفيل لصحبة الفيران معروفة مشهورة تبلغ منه مبلغ العقدة النفسية ، فإذا هبط إلى عرينه فأر انتابته نوبة عصبية من الخوف وارتمى فى أحضان أقرب حارس والدموع تساقط من عينيه ولا يهدأ له روع حتى يتم طرد الدخيل فى

غير رحمة ولا شفقة

ويخيل إلى أن الذى حدث منذ آلاف السنين أن فأرا مرتاعا ضل طريقه إلى جحره المعتاد ، ودخل خرطوم فيل ، وأوغل فيه ، وأسرف فى إيذائه . وتناقلت الفيلة القصة المزعجة جيلا بعد جيل ، حتى صار احتمال وقوع مثل هذا الحادث أمرا يؤرقهم ويقض مضاجعهم آناء الليل ، ويزعجهم ويشغل بالهم أطراف النهار . وتعلم الأطفال منهم فى أحضان أمهاتهم هذا الدرس فتأصل فى غرائزهم وجعلوا ينظرون إلى الفيران نظرات مليئة بالخوف والفزع

وإنى أقر أنى لا أخشى أن تتسرب الخفافيش إلى خرطومى ولكنى مع ذلك لاأستطيع أن أراها دون أن أحس بمثل نفور الفيلة . ثم إنها تستثير إحساسا بسوء الطالع ، فعادة النوم والرأس متجه إلى أسفل والجسم يتدلى من السقف شئ لم أستطع قط أن أستسيغه . وهناك عادة أخرى عرفت عنها وهى عادة الاشتباك بشعر الإنسان ، وإنى أعترف أنى لم أسارف أحدا شكا من خفافيش تكمن فى شعره . وفيما يتعلق بشخصى فإنى أستمتع منذ عهد بعيد بحصانة كاملة تقيني مثل هذه الكارثة ، فقد عبثت به السنون ولم تترك فيه مكانا يصلح عشا لخفاش

مسرف فى القناعة والزهد ، وصار أشبه الأشياء بفناء مصفر للأزلاق

وعلى الرغم من ذلك كله فالخفافيش تثير فى نفسى اشمئزازا لا أقوى على إخفائه مهما فعلت ، كما أوضحت لصديق بيفن

فقال وأنا أحاول أن أستدرجه فى رفق إلى بيت الزواحف: جدا أنت مخطئ

ثم استطرد يقول (فلاريب أن الخفافيش والعناكب والبعوض قد خلقت لحكمة إلهية تقصر أفهامنا المحدودة عن إدراكها . ولله فى خلقه شؤون)

فقلت (نعم)

فقلت: برسى (لقد كان لخفاش فى حياتى شأن كبير . وأظننى أخبرتك بقصته)

فقال (إن كنت قد فعلت فقد نسيتها ، خبرنى بها مرة أخرى

فقال (حسن جدا . سأقصها عليك)

وأخذ يسرد القصة فقال :

من ست سنوات خلت حينما كان عمرى أصغر مما هو عليه الآن بست سنوات دعيت فى شهر يوليو إلى أن أقضى عطلة الأسبوع فى بالسام فرارى ، ذلك القصر الإنجليزى المنيف الذى ينهض مثالا رائعا لفن المهار فى عهد إليزابث ، والذى لا يعد له فى فخامته إلا القليل من القصور على هذا الجانب من المحيط الأطلسى . استأجر سير بورويك

تراوت عالم الآثار المصرية المشهور هذا القصر فى تلك السنة التى أتحدث عنها لمدة الصيف ، واعتاد هو وزوجته وابنته جوليا استضافة جمع كبير من الأصدقاء من السبت إلى الاثنين من كل أسبوع

وكان سير بورويك قد اعتاد أن يقضى الشتاء فى مصر ، ينقب عن آثار الفراعنة الذين بالغوا جهدهم فى الاحتياط لمنع مثل هذا السطو على كنوزهم ، وأمكنه بالتوفر على نهب عدد لا حصر له من القبور جمع مجموعة فريدة من الجعارين يصر دواما على أن يعرضها على ضيوفه . ولم يكن يتمنى من قبول الدعوة إلى بالسام فريارى سوى أمرين : أن أرغم على مشاهدة مجموعة الجعارين ، وأن أظل يومين فى القصر متهيبا لقاء ابنته جوليا

وكانت جوليا تراوت فتاة رائعة الجمال تفيض رقة وعذوبة ، ثم إنها كانت فوق ذلك الوارثة الوحيدة ، وهذه حقيقة أقرر فى إخلاص أنها كثيرا ما أحرجتنى . وقد أخذت مدى عام أنتهز كل فرصة لأدلى إلى جوليا برأيى فيها فلا تقابل مدحى إلا بالابتسام الساخر . وفى آخر لقاء كاشفتها بحبى وصارحتها أنى لا أستطيع العيش بدونها ، فطلبت إلى ألا أكون أبله وقالت إنها تكن لى أخلص الود ، وتحرص على صداقتى حرصا يحملها على استبعاد فكرة الزواج منى ، ولذلك ينبغى أن أعتبرها من تلك اللحظة أختى العزيزة

تفطر قلبى للصدمة الأليمة ، فانطويت على نفسى ، وواريت أحزانى فى غمرة اللهو والعبث ، وظللت زهاء ثلاثة شهور أتوخى تجنب الحفلات التى يحتمل أن تحضرها حبيبتى القاسية جوليا . وفجأة وصلتنى الدعوة لزيارة بالسام فريارى فأدهشتنى وأقلقت بالى ، خفت أن أعرض قلبى الجريح لطعنة أخرى ، ولكنى كنت كالفراشة التى طالما ألفت الشمعة ، لا أقوى على البقاء بعيدا عن اللهب الجذاب طويلا ؟ ولذلك وجدتنى منساقا إلى الكتابة إلى السيدة تراوت أعبر عن سرورى لقبول دعوتها . ولعل بارقة أمل فى أحناء قلبى جاشت فى صدرى

بلغت بالسام فريارى حوالى الساعة السابعة من مساء السبت ، فوجدت جمعا زاخرا قد التأم فى قاعة فسيحة مغطاة الجدر بخشب البلوط . وكان واضحا أن بعضهم قد حضر فى موعد تناول الشاى ، إذ ران على الحديث شئ من الفتور ، وأحاط بالمضيف بعض زملائى الضيوف يرمقون بعين الملل صحفة كبيرة مليئة بالجعارين يعرضها هو فى حماسته المعتادة التى لا تعرف الكلل

واتخذ الجمع وصولى ذريعة للخلاص من هذا الواجب المضنى . ورحبوا فى نشوة بالغة باقتراح المضيف أن يرشد كلا منهم إلى حجرته . وتولت السيدة تراوت وابنتها جوليا إرشاد السيدات إلى حجراتهن ، وكانت جوليا قد رحبت بى فى رقة ودلال كعادتها ، دون أن تنم عينها عما فى قلبها ، مما أذهلنى وأقلق بالى

أما سير بوروبك فقد جمع جماريته وطلب إلى ضيوفه أن يتبعوه . وحينما اطمأن إلى أن كل واحد منهم قد استقر فى حجرته التفت إلى وقال « أرجو المعذرة يا عزيزى بيفن ، فقد اضطررت فى آخر لحظة إلى أن أقدم حجرتك لشقيق زوجتى — الكرنل وترسبون العجوز — الذى حضر على غير انتظار »

فتمتمت بكلام عن قبول عذره

فاستمر يقول « لقد خصصت لك حجرة نوم رئيس الخدم ، أما مننجز فى إمكانه أن يدبر لنفسه مكانا فوق حظيرة السيارات . إنى على يقين من أنك سوف تستريح »

« أنا واثق من ذلك »

ثم تقدمنى إلى حجرة صغيرة فى الطابق الأرضى تكاد تكون خلوا من الأثاث وقال « هنا » وأضاف « حاذر أن تصدم رأسك » حين رأى رأسى يصطدم فى عنف بحلية خشبية متدلية فى الباب ، وهى حلية من تلك الزخارف التى تجعل بيوت التيودور غير صالحة للسكنى .

فسألته مشيرا إلى تابوت كبير مغطى بقماش من التيل المشجر فى ركن من أركان الغرفة . « ماهذا بالله عليك ؟ »

— « لا شئ ، إنه خزانة ليس إلا »

قال ذلك وأخرج من جيبه مفتاحا وفتحها

— خزانة ؟

— نعم خزانة ، أضع فيها جماريتى كل ليلة وصحب الدول بالفعل « وتحفظ فيها زوجتى حليها وبعض الآنية الذهبية . لا تقلق ، ولا تخش اللصوص ، فسينام بونتو معك » ثم أشار إلى حبل يتدلى بجوار المدفأة وقال « هذا نذير الحريق ، والجرس فوق السطح ، فإذا جذبت هذا الحبل جاءك أهل القرية جميعا فى دقيقتين . »

فقلت ضاحكا « إذن لن أفعل »

فقال « حسن . هاأنذا قد عرفتك ، عرفتك . والعشاء فى الساعة الثامنة والنصف . والملابس بطبيعة الحال السهرة السوداء »

وغادرت الغرفة وأخذت أرتدى ثيابى تأهبا للعشاء

ولم يحدث فى ذلك المساء شئ ذو بال

سوى أنني أجلست إلى جوار جوليا فبلغ من اضطرابي أني لم أجد ما أقول . وإلى الجانب الآخر منها جلس شاب من ضباط الحرس هولورد مولا ريردج ، ظل يغازلها في تبذل أحنقني عليه . وبعد العشاء لعبنا البردج فتكرر خطئي ، ولم يكن في وسعي أن أركز انتباهي في اللعب . وهكذا قضيت سهرة الليلة تعسة لم أعف منها إلا حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف حين أخذ السيدات ينصرفن إلى فراشهن . وحينما بلغت السيدة تراوت أول الدرج التفتت إلي وقالت « سوف تجد بونتو في غرفتك . إنه كلب وديع . إنه صديق جوليا وستحبه »

فأجبت « شكرا . ولكن لا داعي للتعب »

فقالت « لا تعب بالمرة . إنه ينام هناك دائما »

ثم التفتت إلى رئيس الخدم وقالت « منتجر ، هل ذهبتم بالسيد بونتو إلى الخارج ؟ »

— نعم ياسيدتي . قام بجولته بعد العشاء

— إذن فسيكون على خير ما يرام . ليلة سعيدة يا مستر بيفن ونوما هنيئا

— « ليلة سعيدة وأحلاما بهيجة »

كذلك قالت جوليا ، وعلى فمها تلك الابتسامة الغامضة التي طالما شغلت فكري وأقلقت بالي

ولم يكن مضيفنا من أولئك الذين يطيلون السهر ، ففي منتصف الليل رأى أن نلجأ إلى فراشنا

وفي طريقي إلى غرفتي صرت أسائل نفسي هل سأجد في بونتو رفيقا وديعا حلو الشمائل كما تنبأت مضيفتي ، وأخذت أتصوره كلبا صغيرا مدللا يمت بصلة إلى فصيلة أجنبية وتمنيت ألا يكون من تلك المخلوقات الضئيلة المادية التي تشبه البعوض ولا تكف عن النباح العديم الجدوى

وقد ما عجبت حينما دخلت غرفتي — بعد أن تعثرت في درجتين غير ظاهرتين وصدمت رأسي مرة أخرى بالباب — وشاهدت كلبا ضخما ألزاسيا من نوع الولف ممددا فوق السجادة ورأسه بين مخالبه وفي عينيه نظرة توجس وارتياب ليست غير طبيعية إذا ذكرنا أننا لم نكن قد تعارفنا بعد

فبدأت أدلله بقولي : «هيه يابونتو ! أيها الرجل العجوز ! » ولكن بونتو ظل مصما أذنيه ، فلما اقتربت منه في حذر هدر فجأة ، ورفع طرفا من شفته ليكشف عن أسنانه الحادة العجيبة . على أنه في الوقت نفسه أدهشني كثيرا بأن هز ذيله في هوادة ،

وتلك حركة لم تبد متفقة تماما مع مقتضيات الموقف ، فقد كنت أعلم أن الكلب الذى يهدر يكشف عن سخطه والذى يهز ذيله يعبر عن غبطته ، أما أن يجمع بونتو بين الحركتين فذلك أمر شاذ يثير الحيرة والارتباك

وتذكرت المثل القديم عن ترك الكلاب النائمة وشأنها ، ورأيت عين الصواب فى أن أترك الكلب النائم وشأنه ولو أن الكلب بالذات فى تمام اليقظة

وانسحبت إلى ركن حصين من الغرفة وراء الخزانة ، وأخذت أغير ثيابى فى سرعة وهدوء قدر الإمكان ، ولاحظت فى أثناء ذلك أن بونتو ينظر إلى بعين الاحتقار المطرد ، وحينما مسحت أسنانى بالفرشة وتمضمضت بدت فى عينيه نظرة اندهاش دلت على أن منتجز الوفى لم يكن من عاداته أداء هذه الواجبات الليلية الضرورية . وأخيرا استلقيت على فراشى وأطفأت النور ، وتأهبت للنوم

وتنبهت فى الحال إلى أن بونتو قد نهض واقفا وأخذ يجول فى الغرفة فى غير ماجلبة ، فقاومت كل رغبة طبيعية فى النهوض والفتك بالعدو الزاحف ، وقنعت بتتبع حركاته المختلفة قدر ما وسعنى فى الظلام المخيم

وخيل إلى أنى أسمعه يفحص حذائى بازدراء ، ثم أدركت من تخبط فى الماء أنه يشرب من إناء موضوع بجوار حوض غسيل الأيدى ، وتابع طوافه الصامت حتى بلغ الفراش ، وبعد لحظة سكون — كتمت فيها أنفاسى متسائلا ماذا تكون الخطوة التالية — قفز فجأة فى الهواء واستقر بكل ثقله على ساقى

ولست مبالغا إذا قلت إن قلبى قد توقفت دقاته ، فقد ملكنى الرعب ، وذكرت القصص المتواترة عن وحشية الكلاب الأزاسية ، وتوقعت بين لحظة وأخرى أن تنهال أنفاسه الدافئة على وجهى وأن ينشب أنيابه الحادة فى عنقى

على أنى بينت أن مخاوفى كانت أوهاما ، وظهرت نيات بونتو الطيبة ، وأخذ يتقلب بعض الوقت دافعا بى تدريجا إلى الحائط ، ورقد فى جوار ركبتى ، وتنهد فى رضا ، وتأهب للاستغراق فى النوم

وكانت ليلة من ليالى يوليه الدافئة ، أضيفت إليها هذه الزجاجة الطبيعية من الماء الساخن ، فانقطع كل أمل فى النوم ، وبلغ من ثقل بونتو على الأغطية أن صار من المستحيل على أن أبدى حراكا ، فآمنت بأنى سأقضى ليلة مزعجة غاية الإزعاج ، وتمنيت أكثر من أى وقت مضى لو أنى بقيت بعيدا عن بالسام فرياري

وبعد مضى ساعة أحسست فجأة وأنا فيما يشبه الغيبوبة أن بونتو قد استيقظ ، وتحرك فى قلق وجعلته يزوم فى صوت خافت ، وفى نفس اللحظة سمعت طرقا خفيفا على الباب ، فجلست وأضأت الغرفة

وقلت للطارق : « أدخل »

وفتح الباب ووقفت على عتبته جوليا ، وفى يدها مصباح ، وعليها ثوب من الحرير الصينى المزركش ، وفى قدميها حذاء من الفراء ، يعلوه سروال من الحرير القرنفلى اللون.. والمرة الثانية هذه الليلة توقفت دقات قلبى ، غير أنها توقفت من فرط السرور الممتزج بالدهشة

قالت « أو منتجز » ولمعتنى فجأة فصدرت عنها صرخة ذعر خفيفة

فسألت « هل حدث شىء ؟ »

— يسوع ! أنت ! معذرة . ظننت..

— أودت منتجز

— إنه ينام فوق حظيرة السيارات . هل لى أن أفعل شيئا ؟

— الأمر وما فيه خفاش .

— خفاش ؟

— فى حجرتى .

— يا إلهى ! وماذا يصنع هناك ؟

— « يتخبط . ولكنك ترى أنى لن تنقل لى عين والخفاش فى الحجرة .

ظننت منتجز يخلصنى منه . آسف أن أيقظتك . »

— لا تأسفى أرجوك . إنى أحب أن أوقظ . ومع ذلك ما يستطيعه منتجز أستطيع أن أفعله

— يكون لك فضل عظيم

والتفتت إلى كلبها وقالت « إليك عنى يا بونتو ! إليك عنى ! » وكان الحيوان الذكى يحبها بشغف بالغ آثار إعجابى وعطفى عليه

وأسرعت بارتداء ثوبى وخفى وتبعتها إلى الطابق العلوى وبونتو فى أثرى واجتزنا ممرات معتمة حتى بلغنا غرفتها فى الطرف الآخر من القصر

ودخلنا الحجرة فى غير ما جلبة ، وأغلق الباب خلفنا ، وبحثنا عن الخفاش بحثا دقيقا دون أن نعثر له على أثر . فقالت جوليا

— ربما كان مختبئا ، ولعله أحس بقدومنا .

— سوف يجده بونتو حالا

ولت ذلك آملا أن يعاوننا ولكنه لم يحفل بنا ، وانشغل عنا بإناء فيه ماء ، وما أظننى شاهدت فى حياتى كلبا دائم الظمأ مثل بونتو

فقالت جوليا « أظنه قد جم فوق

الصوان ، حتى إذا ما لجأت إلى فراشي جعل يتخبط من حولي . »

— إني أعرف خير طريقة للتخلص من الخفافيش . لقد قرأتها في كتاب .

— أي كتاب ؟

— لا أذكر ، ولكنه يقول إذا أطفأت المصباح ومكثت ساكنا لحظات حتى يسترجع الخفاش ثقته بنفسه وفتحت الباب فجأة فإنه يخرج إلى الردهة

— وهل يليق ذلك ؟

— يليق .

— أقصد هل يرضى والدي أن نطلق الخفافيش في أرجاء البيت ؟

— ومن يدريه ؟

— حسن . فلنحاول .

قالت ذلك في شيء من التردد . فأطفأت النور ووقفت إلى جانب الباب في ظلام حالك وسكون شامل نحو نصف دقيقة ، حتى خيل إلى أن الخفاش قد أمهل بما فيه الكفاية ليخرج من مخبأه ، ثم تلمست أكرة الباب وأدرتها بسرعة ، وفتحته على مصراعيه ، وإذا برجل بدين متوسط السن ذي لحية يقف في الردهة ، حاملا مسباحا في يده ، وقد بدت على وجهه أمارات الدهشة ، فتولاني الارتباك وأحسست أن الموقف يتطلب شيئا من الإيضاح

وقالت جوليا « لا بأس . إنه الحارس الليلي » وأضافت في بشاشة « مساء الخير يا باربر . أخو جميل . جميل الليلة . أليس كذلك ؟ »

فقال باربر في صوت أجش « ليلة سعيدة ياسيدتي » متجاهلا تعليقها على حالة الجو

فقالت جوليا « كان مستر بفن يعاونني على طرد خفاش من حجرتي »

— « خفاش ؟ أجل ياسيدتي »

قال ذلك في لهجة لا تبعث على الاطمئنان فسألته « هل صادفته في الردهة ؟ »

— لا سيدتي . لم أصادف خفاشا الليلة .

إذن فلابد أنه أفلت من النافذة

— أجل . سيدتي

— لا بأس والتفتت إلي وقالت « آسف أن أزعجتك . سيرافقك باربر إلى غرفتك . تسمح يا باربر ؟ »

— نعم سيدتي

— ليلة سعيدة إذن !

« ليلة سعيدة » وأضفت « وأظن الأفضل أن تحتفظي ببوتو . وسيكون أسعد حالا . » وعدت في أثر باربر إلى غرفتي ملتزما الهدوء . والظاهر أن الرجل كان يميل بطبيعته إلى العبوس والانقباض فلم يجاوبني

فى حديث ولذلك كرهت مفاتحته فى شئ
وأدركت من مسلكه أنه يميل إلى إساءة الظن بتصرفاتى ، فساءلت نفسى هل من الكياسة أن أهبه نصف جنيه مثلا لعلى أضمن سكوته ؟ غير أن إحساسا داخليا حفزنى إلى الإحجام عن التورط فى هذه الخطوة الطائشة ، وعدلت عن محاولة رشو الرجل الموقر . ولما تركنى عدت إلى فراشى مؤملا خيرا ومرتاحا لغياب بونتو ، وأطفأت النور مرة أخرى

واستغرقت لتوى فى سبات عميق . وبينما كنت فى وسط حلم شائق زاخر بالحياة أنقذنى من هجمة حيوان ضار ضخم ، إذ حدث ما أيقظنى فجأة ، فأهب من نومى على طرق بالباب

فقلت للطارق : « ادخل » بصوت ينم عن شئ من الضجر لأنى كنت قد بلغت فى حلمى غاية الانفعال إذ ألقت فى الحلم جوليا بنفسها فى غير ما تحفظ بين أحضانى

وفتح الباب وقد أفقت ، ووقعت عينى على الجمال الحبيب ، فانبعثت من قلبى صيحة فرح لم يكن فى وسعى أن أكتمها

وقالت جوليا فى حذر وقد ارتسمت على فمها ابتسامة رقيقة تحمل أبلغ آيات الاعتذار « آسف أن أوقظك مرة أخرى ، ولكن الخفاش نفسه قد عاد إلى حجرتى »

فسألت « أواثقة أنت ؟ »

— « واثقة ؟ » وكررت الكلمة فى كثير من الحنق

فسارعت إلى الإيضاح قائلا « أقصد هل أنت واثقة من أنه الخفاش نفسه وليس آخر يشبهه ؟ ربما كان توأما له أو زميلا على ما كلفه ، فما أشد الشبه بين الخفافيش كما تعلمين ، وإذا لم نفحصها جيدا .. »

فقاطعتنى قائلة : « لست أدرى شيئا عنها ، وكل ما أعلمه أن خفاشا فى حجرتى وأكون ممتنة جدا إذا ... »

فقلت : « طبعا . أمهلينى لحظة حتى أرتدى ثوبى »

وبلغنا حجرة جوليا للمرة الثانية فى تلك الليلة فلم نعثر على شئ . وكان بونتو قد انتهز فرصة غياب سيدته فقفز إلى فراشها وأسند رأسه إلى الخدة متظاهرا بالنوم

فزجرته جوليا قائلة « انزل فورا يا بونتو فأنت تعلم جيدا أن هذا الفراش ليس لك »

فنزل بونتو متثاقلا كأنما قد جرحت كبرياؤه ، وشغل نفسه بارتشاف قطرات من الماء

قالت جوليا « غريب أمر هذا الخفاش لابد أنه هنا فى مكان ما »

« إن خطتنا القديمة أفلحت كثيرا . فلم لا نعيدها ؟ »

— لم لا ؟

ومرة أخرى اطفأت النور وكتمت نفسي وأصغيت . ولا أدري أهو مجرد وهم أم أني سمعت حفيف أجنحة ؟ وفي لمح البصر تلمست أكرة الباب والتزمتها بعنف شديد ، فوجدتني ملقى على الأرض والمقبض في يدي والباب مغلقا كما كان

فسألت جوليا « ماذا نفعل ؟ »

فقلت : « انحلت الأكرة »

فقالت في ضجر : « أعدها إلى مكانها

— أرجوك »

فقمت إلى القفل أحاول أن أعيد الأكرة إلى حيث كانت ، وقلت أطمئنها : «لحظة واحدة ! إني أبذل قصارى جهدي»

والظاهر أن ارتباكي كان قد بلغ حده فذهبت جهودي عبثا ، ولما أضأت الحجرة عرفت أني دفعت قضيب الأكرة أكثر من اللازم بحيث صار من المستحيل تحريكها

وسألت جوليا « كيف الحال ؟ »

فأجبت « ليست على ما يرام . فإني لا أستطيع مطلقا فتح الباب »

— ولكن يجب أن تفتحه

— آسف . فذلك مستحيل

— ولكن ألا تدرك أنك لا تستطيع أن تقضي الليل هنا ؟

— بطبيعة الحال لا أريد ذلك

وأدركت فورا ما في هذه العبارة من جفاء ، فقلت أصحح هفوتي « أقصد أني أعلم أني لا أستطيع ، ولكني لا أرى مخرجا »

وأخذنا نعالج الباب بكل ما وقع في أيدينا من أدوات ، ولكننا لم نوفق ، وصار حتما أن نستسلم لمصيرنا

فقلت « أرجو أن تلجئي إلى فراشك قبل أن تصابي ببرد . يمكنني أن أستريح على هذا الكرسي حتى يأتي من يخرجني »

وحاولت أن أتظاهر بشيء من المرح وعدم الاكتراث ، وأنا أبعد الناس عن المرح وعدم الاكتراث

ولا بد أن الساعة كانت حوالي الثالثة صباحا ، إذ كان البرد قارسا ، فأصرت جوليا على أن أتدثر وعادت مضطرة إلى فراشها وأطفأت النور

وكان الموقف حرجا ، ولكني شرعت أسري عن نفسي ، وأتشبه بفارس من فرسان البطولة ، تضطره ظروفه إلى السهر طول الليل . وكلما تحركت أحدث الكرسي صريرا ، فالتزمت السكون كي لا أوقظ مرافقتي . على أنها لم تنم ، إذ سمعتها تقول «أوه ! دعي أرجوك ! » ثم أردفت «أوه ! أهو أنت يا بونتو ! » والظاهر أن الكلب كان قد قفز ثانية إلى فراشها

واستدارت ، وأنت أنة خافتة ، ثم انتظم تنفسها فحسبها أغفت ، وحاولت أنا الآخر أن أغفو قدر ما يسمح حالى ، غير أنى سمعت صوت انفجار مكتوم ، فتنبهت وصحت برغمى : «ما هذا يا إلهى!» وأمكننى أن أرى على ضوء الفجر جوليا مفتوحة العينين

فسألت : «هل وقع شىء ؟»

فأجبت : « أظننى سمعت طلقا ناريا »

فقالت : «سارقو الصيد على ما أظن . لا تحفل بهم »

فاستلقيت على كرسى ، ولكن سرعان ما أدركت أن الناس قد بات أمرا لا محل له ، فالطيور قد أخذت تستيقظ وتقفز على البساط الأخضر ، والسماء الرمادية اللون قد أخذت تشوبها حمرة ، وبنظرة إلى الساعة الصغيرة الموضوعة على المائدة بجوار فراش جوليا ، تبينت أننا فى الساعة الخامسة وعشرين دقيقة

فقالت وكأنى بها تقرأ أفكارى «بقيت ساعتان . فهم يوقظوننى عادة فى منتصف الساعة الثامنة »

فتساءلت : «وكيف الخلاص من هذا الحرج ؟»

فأجابت : « لقد فكرت فى الأمر . وأرى أن تختبئ خلف الباب حينما يدخلون وتتسلل إلى الخارج حينما يديرون ظهورهم إليك »

— ظهورهم ؟

— جرت العادة أن تأتى الخادم ومعها وصيفتى حاملة كوب الشاى »

— أوه ! » فهبت بها فى غير مرح لأن الفكرة لم تبد سهلة ميسرة ، والفرار دونه مختلف العقبات

على أن الخطة نجحت نجاحا فاق ما كنت أؤمل ، وألفيت نفسى أتسلل فى خفة إلى الردهة وأسرع إلى حجرتى مرتاح البال

ولكن هذا الارتياح وا أسفاه ! لم يدم إلا لحظات . فما أن فتحت باب غرفتى حتى شاهدت منظرا أشاع الرعب فى أوصالى. فقد كانت أشبه الأشياء بغرفة من غرف فرنسا احتلها الألمان ثم جلوا عنها . فالأثاث متناثر ، ومحتويات الأدراج مبعثرة ، وفى استطاعتك أن تتصور شعورى وقتئذ حين رأيت باب الخزانة مفتوحا والخزانة نفسها خاوية

ولم يكن الأمر فى حاجة إلى بوليس سرى يكشف عما حدث . فقد اقتحم اللصوص النافذة ، وأحدثوا بالديناميت ثغرة فى الخزانة . وهذا يفسر الانفجار الذى عزته جوليا إلى سارقى الصيد المتطفلين ،

واغتنم اللصوص فرصة غيابي وسرقوا حلي مضيفتي ومجموعة الجماوين المشهورة التي قضى سير بورويك زهرة حياته في جمعها

والحق أني لم أقع طول حياتي في مثل هذا الموقف المعقد . وكيف الخلاص من هذا المأزق بطريقة تحفظ علي كرامتي وشرفي ؟ إذا قلت الحق ، فمن يصدقني ؟ وإذا ادعيت أني كنت غارقاً في سبات عميق في فراشي فمن يصدق أن الديناميت لا يوقظني ؟ وفكرت في أن أقيد نفسي بحبل وأضرب رأسي بآلة حادة كيما يجدني أول قادم ملقى على الأرض بلا حراك . ولكن هذه الخطة لم تكن ميسورة التنفيذ ، فلو قيدت نفسي بحبل الجرس فكيف أدق رأسي ؟ ولو بدأت بدق رأسي وأغمى علي فكيف أقيد نفسي ؟

وبعد استعراض الموقف من جميع وجوهه لم أجد بداً من الالتجاء إلى مضيفي وإخطاره بالقصة كلها والاستسلام له يتصرف في أمري كما يشاء

واستجمعت ما بقي من شجاعتي ، واجتزت الدهاليز إلى حجرة سير بورويك ، وطرقت الباب . ولما لم يجب أحد فتحت الباب ودخلت

وكان مضيفي واقفاً أمام المرآة يحلق ذقنه والصابون قد غطى أذنيه فلم يشعر بوجودي فبدأت « عفواً سير بورويك ... »

فصاح « يالشيطان ! من هنا » واستدار فجأة فانزلق الموسى من يده وأحدث جرحاً طويلاً في ذقنه

فقلت آسفاً « أخشى أن تكون قد جرحت نفسك »

فسأل غاضباً « ومن يكون المخطئ في هذا ؟ ألا تستطيع أن تطرق الباب قبل أن تدخل ؟ ماريا ! » وقصد إلى باب حجرة زوجته وصاح « ماريا ! ماذا صنعت بعصا الجبس الملعونة ؟ »

— لحظة يا عزيزي . سأحضرها لك

وجاءت السيدة تراوت فأدهشها وجودي وسألت

« ماذا حدث ؟ هل أصاب مستر بيفن شيء ؟ »

فقال زوجها « كلا . قبحه الله . كاد أن يجعلني أذبح نفسي . هذا كل ما في الأمر ! »

فعدت أقول « معذرة . ولكن ... »

— ماذا ؟

— إني آسف . ولكن ينبغي لي أن أخبرك ..

— تخبرني بماذا ؟

— حدثت سرقة بسيطة

— سرقة ؟

أجل .

— سرقة ؟ أين ؟ ومتى ؟ وماذا تقصد !

— فى حجرة نومى

— يا إلهى ! أتقصد الخزانة ؟

— أجل

— وجواهرى !

— وجماريني !

واندفع سير بورويك إلى الدهليز وهو يصيح

« جماريني ! جماريني ! »

وتبعته أنا وزوجته حتى بلغنا الغرفة الخربة وكان منتجز وبارير واثنان من الخدم قد تجمعوا فى المدخل . فأزاحهم سير بورويك من طريقه وهرول إلى الخزانة المفتوحة وألقى عليها نظرة سريعة ثم التفت إلى منتجز وسأله

— هل أخطرت البوليس ؟

— كنت على وشك أن أفعل

— إذن ، أخطرهم فى الحال .

— أمرك يا سيدى

واختفى منتجز والتفت مضيفى إلى الحارس الليلى وسأله « كيف حدث هذا يا بارير ؟ »

— « لا أدرى ياسيدى، وربما يستطيع هذا السيد أن ينبئنا بشئ » وأشار إلى .

فقلت متلعثما « أكيد . بطبيعة الحال .. »

فقال مضيفى موجها الكلام إلى « ماذا ؟ لقد نمت هنا ليلة أمس على ما أعتقد ؟ »

— لم تنفل عينى لحظة

— لقد شغلت هذه الحجرة

— أجل ! شغلتها من الناحية النظرية

— إذن خبرنا ! كيف اقتحمها اللصوص ؟

— من النافذة على ما أظن

— ألم تسمعهم ؟

— لا . لا أستطيع أن أقول إنى سمعتهم

فقالت السيدة تروات « ربما هجموا عليه وضربوه ضربة أطارت صوابه »

فقال سير بورويك « كلام فارغ . لا يستطيع شئ أن يطير صوابه . والآن يا بيغن خبرنا ، لقد كنت هنا فماذا حدث ؟ وماذا فعلت حينما أقبل اللصوص ؟ »

— الواقع أنى لم أكن هنا

— لم تكن هنا ؟

وسألت السيدة تروات « وأين كان بونتو ؟ »

فأجبت « كان هو الآخر نائما فى الخارج »

فنظر إلى سير بورويك نظرة قاسية وقال « هل لى أن أستنتج أنك لم تقض الليلة فى حجرتك ؟ »

فقلت « لا . أقصد نعم .. أى أنى » ...

فالتفت مضيق إلى الخدم وأمرهم بالخروج وقال فى نغمة ما كنت أطيقها فى أى ظرف آخر « والآن ياسيدى ! ياصديق الصغير ! أكون ممتنا لو أخبرتنى كيف قضيت الليل »

فأجبت فى بساطة « كنت أصيد الخفافيش »

— لا تحاول أن تسخر منى يا سيدى !

— ما بى من حاجة إلى ذلك . أقصد أنى لا أسخر

— هل أفهم من ذلك أنك لم تشغل حجرتك ؟

— أجل ! لك أن تفهم الأمر على هذا الوضع

— وأنك قضيت الليل فى حجرة أخرى ؟

— أجل ! أظن ذلك

فالتفت إلى زوجته وقال « ماريا ! أرى الأوفق أن تتركينا »

فقالت وقد غلب عليها الحياء « أفضل أن أبقى . »

— كما تشائين » ووجه الخطاب إلى قائلا « لن أضيع وقتى فى وصفك بالصفات التى تستحقها . والقطار إلى لندن يقوم فى الساعة ١٠٫٣٥ . ولكن قبل أن تذهب ، هنالك شئ واحد أصر على معرفته . فى غرفة من كنت ؟ »

فقاطعته قائلا « أرفض أن أخبرك . فأنا رجل شريف »

« رجل شريف ! » ثم أزاح زوجته جانبا وصاح بأعلى صوته « خبرنى باسم الفتاة التعسة فورا ، وأقسم أنى سأطردها من البيت فى الحال . »

فتدخلت زوجته قائلة « من المؤكد أنها ليست السيدة إرتنول ولا السيدة تشيب المسكينة ولا أليس جاوم »

وقال هو « والعجوز وندلشام مستبعدة »

فقالت السيدة تروات « إذن لم يبق إلا الأوانس »

فهجم سير بورويك على كالنمر صائحا « لا أظنك تزعم ! إذا جاز أن يحدث ذلك فى هذا البيت ! فإنى أقسم أن أزوجك من الفتاة غدا ! »

فقلت « وليكن ! فلا مانع عندى ! »

وبينما كان بيغن يقص على هذه القصة الطويلة إذا به يتوقف فجأة ، وينظر فى نخار

إلى سيدة بارعة الجمال تقود طفلتين نوأمتين تبلغ كل منهما الرابعة من عمرها فألححت عليه أن يتم قصته ، ولكنه أعرض عني ، وأسرع يستقبل السيدة وطفلتيها وقال « تعالى يا جوليا ! هل أدت الطفلتان الصلاة ؟ » ثم التفت إلي وقال « ألا تعرف زوجتي ؟ جوليا ! هذا صديق قديم »

وتصافحنا وقالت جوليا « ما أظننا تقابلنا قبل اليوم »

فأجبت « ولكن أعرف عنك كل شيء »

فسألت زوجها ضاحكة « ماذا كنت تقص عليه ؟ »

— لا شيء يا حبيبتي

ثم التفت إلى الطفلتين وقال « هيا بنا نطعم الخفافيش »

فقالت جوليا « كم يحب بابي الخفافيش ! »

فقلت « لا عجب »

أحمد علمي

ابتداء من العـــدد القادم

تقرأ في كل عدد قصة من أروع

القصص البوليسية الحديثة